

أيسر من تناول الموضوعات نفسها، وبذلك فإن كل عملية في الرموز الكتابية تطابق تعبيراً ما في الموضوعات وغالباً ما يكون بوسعنا تجنب تناول الأشياء نفسها خلال العلاج المنهجي إلى نهايته. ذلك أن كل نتيجة نصل إليها في الكتابة الرمزية يمكن أن ننقلها إلى موضوعاتها لما بينها من تطابق أثبتناه منذ البداية.. والمعلوم أنه كلما كانت الرموز الكتابية دقيقة أعني كلما عظم عدد علاقات الأشياء التي تعبر عنها الرموز، كلما تبينا من عظم منافعتها" (2).

وقد يتبادر إلى الذهن أن الكتابة قد أسهمت في التخفيف من غلواء الشفوية لما قامت بتدوين النصوص الشفوية للمجتمع البشري، ولكن مع هذا كله، فقد لا نجانب الصواب إن نحن اعتقدنا بحتمية فقدان الكتابة الحرفية قيمتها مستقبلاً بسبب التطورات العلمية التي تتجه إلى استعمال الإشارات الرقمية والرموز الصورية محل الحروف، وقد استفاد الباحثون كثيراً من هذا المستوى لقراءة النصوص التي تبثها الأقمار الصناعية سواء في المجال العسكري أو في المجال الزراعي، أو في مجالات أخرى.

ويبدو أن العقلية العربية لا تحتفل بالمكتوب كثيراً بل تولي اهتمامها بالشفوية، ففيما كانت تنتقص من قيمة العالم الذي يعتمد على المكتوب في مجالسه العلمية، أو حلقات درسه وتسميه صحفياً انتقاصاً لقيمه ومصداقته، وكانت تبجل الذاكرة وتقوي من سلطانها. وعندما عاود العرب قراءة هذا التراث الشفوي شكوا فيه وارتابوا في أمره، لأن نصوصه لم تسلم من التشويه والانحراف لتعدد الروايات للخبر الواحد، ذلك أن الرواية استمرت قروناً، ولم تقيد هذه النصوص ضمن مدونات لاستحالة هذا في ذلك العصر.

وفي المقابل نجد أن الإنسانية قد استفادت كثيراً من المدونات التي تركها السابقون، وقد استطاعت، عن طريق القراءة التخمينية، أن تفك الكثير من رموز هذه المدونات، وكل اعتراف بأهمية التدوين في نقل العلم والمعارف والتجارب، وحتى نقل تلك الآراء التي تحط من قيمة الكتابة ذاتها، فقد سرد أفلاطون في مؤلفه "فيدروس" اعتراضات سقراط الأربعة على الكتابة (3).

1- إنها تضعف الذاكرة نظراً لاعتماد هذه الأخيرة على دعامة خارجية وإن كان هذا الاعتراض صحيحاً، فإن الكتابة قد تعين على التذكر، وربما زادت في القدرة التخزينية للذاكرة حيث تمدّها برموز وسمات جديدة كعلامات لاستحضار المعلومات.

2- تقدم نصاً صامتاً لا غير، على الرغم من وجود كتابات ناطقة، إلا